Volume (25), No. (3B) - (September)/(2025)

The Functional Syntax and Its Impact on Structural Deviations: An Analytical Study of al-Hamadhani's Maqamat, with the Declarative Sentence as a Model

النّسق الوظيفيّ وأثره في عوارض التركيب دراسة في مقامات الهمذاني: الخير أنموذجا

غدير بني حمد
أردنية
ghadeer.banihamad@hotmail.com

*(Corresponding author) e-mail: ghadeer.banihamad@hotmail.com

الملخّص

ملخّص:
لَمّا كانت اللغة ذات علاقة وثيقة بالمُجتَمع الّذي تُلد فيه، فإنّها لا يمكن أنْ تنعزل عن سياقاتها الاجتماعيّة والثقافيّة، بل إنّها تتلاءم معها وتتشكّلُ وفقًا لهذه السياقات، وهذا يعني أنّها لا تُدرّس وظيفيًا بمعزل عن تلك السياقات، ولا يمكن أيضًا أنْ يُنظر إليها على أنّها نظام تركيبي تجريدي حصرًا.
وبناءً على ذلك فإنّ هذا البحث يدرّس النّسق الوظيفيّ للأسلوب الخبريّ وفي عوارض التّركيب منه بخاصّة، وفي نماذجَ مُختارة من مقامات الهمذانيّ، فينظر في النّسق الذي كان سببًا للعدول من التركيب التجريدي الافتراضيّ إلى التّركيب العارض، كالعُدول من الذّكر إلى الحذف، سواء أكان الحذف في أحد طرَفي الإسناد، أو كان في غيرهما؛ وكالعدول في باب التّقديم والتّأخير وفي باب الاستبدال والزّيادة.
وقد خلَصت الدّراسة إلى أنّ العارض التركيبيّ في كلّ موضع ورد فيه كان أثرًا لوظيفيّة اللغة وما تحمله من دلالات في تلك المواضع، وما تفرضه من انزياحات تحثّ المتلقي على التّنبه لها والكشف عن دلالاتها، انطلاقًا من كَوْن اللغة مرتبطة أشدّ الارتباط بالسياقات الثقافيّة والاجتماعية والسياسيّة، وليست بنية مستقلّة بنفسها عنها.

ABSTRACT

Abstract
Language is deeply intertwined with its social and cultural contexts and cannot be separated from the society in which it originates. Rather, language both adapts to and is shaped by these influences. This suggests that language should not be studied functionally in isolation from its context, nor regarded solely as an abstract structural system.

This study examines the functional patterns of the declarative style, with a focus on structural anomalies, through selected examples from al-Hamadhānī's Maqāmāt. It investigates the linguistic systems that give rise to deviations from the abstract, hypothetical structure toward marked or anomalous forms. These include shifts from mention to omission—whether the omission occurs in a component of predication or elsewhere—as well as alterations in word order (such as fronting and postponement), substitution, and addition.

The study concludes that each observed structural anomaly stems from the functional nature of language and the meanings it conveys in specific contexts. Such anomalies trigger semantic shifts that compel the recipient to engage actively in uncovering their implications. This supports the view that language is inherently connected to cultural, social, and political contexts, rather than being an autonomous, self-contained system.

Keywords: functional patterns, structural anomalies, declarative sentences, Maqāmāt

Article history:

Submission Date: 06/07/2025

Reviewing Date: 24/07/2025

Revision Date: 04/08/2025

Acceptance Date: 22/08/2025

Publishing Date: 03/09/2025

DOI: 10.6520/vwm5pe06

Keywords:

functional pattern , Structurel anomalies, declarative santences, Maqamat

Funding:

This research received no specific grant from any funding agency in the public, commercial, or not-for-profit sectors.

Competing interest:

No competing interests exist.

Cite as:

بني حمد, غ. (2025) .Functional The Syntax and Its Impact on Structural -Deviations: An Analytical Study of al Hamadhani's Maqamat, with the Declarative Sentence as a Model. Jersah for Research and Studies 25 (3B). https://doi.org/10.6520/vwm5pe06.

© The authors (2025). This is an Open Access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution (CC BY NC), which permits non-commercial re-use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original work is properly cited. for commercial re-use, please contact admin@jpu.edu.jo.

النَّسَق الوظيفيّ وأَثَرُهُ في عوارض التَّركيب دراسة في مقامات الهمذاني؛ الخَبَرُ أُنْموذَجًا

The Functional Syntax and Its Impact on Structural Deviations: An Analytical Study of al-Hamadhani's Maqamat, with the Declarative Sentence as a Model

غدير عدنان محمد بني حمد/ طالبة في مرحلة الدكتوراة- قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة اليرموك- إربد- الأردن- البريد الاإلكتروني ghadeer.banihamad@hotmail.com

الدكتور:محمود سالم خريسات/جامعة اليرموك-كلية الآداب-إربد- الأردن

البريد الإلكتروني:mahmoud.khresat@yu.edu.jo

النَّسَق الوظيفيّ وأَثَرُهُ في عوارض التَّركيب دراسة في مقامات الهمذاني؛ الخَبَرُ أُنْموذَجًا

ملخّص:

لَمَّا كانت اللغة ذات علاقة وثيقة بالمُجْتَمَع الّذي تُلد فيه، فإنّها لا يمكن أنْ تنعزل عن سياقاتها الاجتماعيّة والثقافيّة، بل إنّها تتلاءم معها وتَتَشكّلُ وفْقًا لهذه السياقات، وهذا يعني أنّها لا تُدْرَس وظيفيًّا بِمَعْزِلٍ عن تلك السياقات، ولا يمكن أيضًا أنْ يُنْظر إليها على أنّها نظام تركيبيٌّ تجريديٌّ حصرًا.

وبناءً على ذلك فإنّ هذا البحث يَدْرُس النّسَق الوظيفيّ للأسلوب الخبريّ وفي عوارضِ التَّركيب مِنْه بخاصّةٍ، وفي نماذجَ مُخْتارة من مقامات الهمذانيّ، فينظر في النّسق الذي كان سَبَبًا للعدول من التركيب التجريدي الافتراضيّ إلى التَّركيب العارض، كالعُدول مِنَ الذِّكْر إلى الْحَذْف، سواء أكان الحذف في أَحَد طَرَفِي الإسناد، أو كان في غَيْرِهما؛ وكالعدول في باب التَّقديم والتَّأخير وفي باب الاستبدال والزّيادة.

وقد خَلُصَت الدِّراسة إلى أنَّ العارض التركيبيّ في كُلِّ مَوْضع ورد فيه كان أَثَرًا لوظيفيّة اللغة وما تَحْمِله من دِلالاتٍ في تلك المواضع، وما تَفْرِضه من انزياحات تَحُثُّ المتلقي على التّنبه لها والكشف عن دِلالاتها، انطلاقًا من كَوْن اللغة مرتبطة أَشدّ الارتباط بالسياقات الثقافيّة والاجتماعية والسياسيّة، وليست بِنيةً مستقلَّة بنفسها عنها.

كلمات مفتاحية: النسق الوظيفيّ، عوارض التركيب، الجملة الخبرية، المقامات.

The Functional Syntax and Its Impact on Structural Deviations: An" Analytical Study of al-Hamadhani's Maqamat, with the Declarative "Sentence as a Model

Abstract: Language is deeply intertwined with its social and cultural contexts and cannot be separated from the society in which it originates. Rather, language both adapts to and is shaped by these influences. This suggests that language should not be studied functionally in isolation from its context, nor regarded solely as an abstract structural system. This study examines the functional patterns of the declarative style, with a focus on structural anomalies, through selected examples from al-Hamadhānī's Maqāmāt. It investigates the linguistic systems that give rise to deviations from the abstract, hypothetical structure toward marked or anomalous forms. These include shifts from mention to omission—whether the omission occurs in a component of predication or elsewhere—as well as alterations in word order (such as fronting and postponement), substitution, and addition. The study concludes that each observed structural anomaly stems from the functional nature of language and the meanings it conveys in specific contexts. Such anomalies trigger semantic shifts that compel the

recipient to engage actively in uncovering their implications. This supports the view that language is inherently connected to cultural, social, and political contexts, rather than being an autonomous, self-contained system.
Keywords: functional patterns, structural anomalies, declarative sentences, Maqāmāt

تقديم

اللّغة بناء مكون من مجموعة من العناصر، كلّ عنصر يسهم في موضعه في تأدية المعنى، فتصبح اللغة بأبسط صورةٍ لفظًا ومعنى، وتهتم الدراسات اللغوية من جهة بكيفيّة تشكّل المعنى وتحققه في الإنجاز اللغويّ، أو بدراسة أشكال التركيب في التعبير عن المعنى، وتهتم من جهة ثانية بالبحث عن دلالات الكلام ومقاصده، تلك المقاصد التي تتأتى من جملة من التعالقات، بدءا بالصوت مرورا بالألفاظ والمعاني المعجمية والتراكيب النحويّة، وانتهاء بملابسات مقام الكلام، والظروف والسياقات المحيطة، وكلّ ما من شأنه أنْ يُسهم في خلق دلالة إضافيّة في الكلام، ويُمكن الإشارة هنا إلى دور المتلقي نفسه في خلق دلالة ما.

ويبرز من الكلام السابق تصّور مفاده أنّ اللغة ظاهرة اجتماعيّة، وما هذا بغريب، إذ كان ابن جني قديمًا قد أشار إلى شيء من هذا حين قال: "اللّغة أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"، ويفهم من قول ابن جنّي أنّ اللغة تؤدي وظيفتها الأساسية وهي التواصل، ولو أردنا التعمّق في قول ابن جني لتبيّن أنّ المفهوم من الأغراض هو المقاصد، والمقاصد عادة ما تختلف باختلاف الأشخاص والسياقات والمقامات وكلُّ ما يحيط بالعملية الكلاميّة.

معنى الوظيفيّة في اللّغة:

عدّ علم اللغة الحديث الوظيفيّة من أبرز قضاياه، وهي تهتمّ بالجانب الاجتماعيّ للغة وما تُؤدّيه من وظائف، فلا يمكن النّظر إلى اللغة على أنها تركيبيّة تتجرّد من سياقاتها الاجتماعيّة والثقافية، فهي ظاهرة تتأثّر بالمنظومة الاجتماعيّة والثقافيّة وتؤثّر فيها، وتشترك النظريّات اللغوية والوظيفية جميعها في التركيز على الدلالة والاستخدام الفعلي للغة والعوامل البراجماتية المؤثرة في استخدامها، كما يلعب السياق دورا واضحا من الناحية الدلاليّة.

ولو أُريدَ التعبير بصيغة أخرى عمّا يقال في الوظيفيّة، فيمكن عدّها الاتجاه الذي يبحث في المكوّنات اللغوية لتتلاءم مع المكوّنات الاجتماعية والثقافية، فأفاد من سياق الحال والنظام وشبكة الأنظمة، ثمّ النظر إلى تطوّر اللغة استجابة لتطوّر حاجات المجتمع، ومن ثمّ فاللغة استخدام، وينظر إليها على أنها استخدام.

وبالنظر إلى **المعنى اللُّغويّ** في معاجم العربيَّة نجد أَنَّ الوظيفيَّة من كل شيء ما يقدر له في كل يوم من رزق أو طعام أو علف أو شراب، ووظف الشيء على نفسه ووظفه توظيفا ألزمها إياه[1]. وفي المعجم

[1] () ابن منظور المصري: لسان العرب، دار صادر ـ بيروت، الطبعة الثّالثة 1414ه. (مادة: وظف).

الوسيط: وظف من: وظف البعير يوظفه وظفا، أصاب وظيفة و(وظفه): عين له في كل يـوم وظيفـة، وعليـه العمل والخراج ونحو ذلك، و: قدره: يقال: وظف له الرزق ولدابته العلف، ووظف على الصبي كل يوم حفظ آيات من القرآن، عين له آيات لحفظها، و(الوظيفة) ما يقدر من عمل أو طعام أو رزق أو غير ذلك[2].

وفي **الاصطلاح**: الوظيفيّة مصدر صناعيّ من (وظف)، وهي تعني ارتباط اللغة بوظيفة التواصل والتبليـغ والبيان ارتباطا يجعل البنية انعكاسا للوظيفة وتابعا لها، وتقوم الوظيفيّة على أنْ لا اعتبـار للوحـدات اللسـانيّة إلا من خلال الدور الذي تلعبه في التواصل"[3].

الوظيفيّة تقوم على الاختيار

ولا يترك الوظيفيّون والوظيفيّة جهدا في البحث عن شبكة العلاقات التي تخدم المعنى، بعيدا عن الجانب المغلق للغة، ولذا أصبحت العلوم متداخلة وكلّها تخـدم تفسير الظـاهرة اللغويّـة، فقد يحتـاج البـاحث إلى علم النفس المعرفي وعلم الاجتماع المعرفي وغيرهما ليصل إلى تفسير الظاهرة اللغويّة، ولو رددنا هذا الاحتيـاج إلى النّص الأدبي أيّ نص، لقلنا إنـه لا يُفهم إلّا إذا كـان في سـياقاته الاجتماعيّـة والنفسـية والثقافيّـة، هـذا من جهة، ومن جهة أُخرى فالمتكلّم يحتاج-أيضًا- إلى الاختيار من متعدد، حتى يصل إلى الصيغة المناسبة للمقـام والسياقات المختلفة، وللتمثيل على سبيل الثقافات يمكن أن يُكتفى في الثقافة الغربيّة بكلمة (hi) تعبيرا للتحية، في حين يقع اختيار المتكلم على جملة تامّة الأركان في الثقافة الشرقيّة، وتحديدا في الثقافة الإسلاميّة، للتعبير عن التحيّة، فيقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وفي كلٍّ هناك نوع من الاختيار الملائم للمقـام والسـياق والثقافة بطبيعة الحال.

وفي سياق الخطاب النحوي تحديدا يقع اختيار المتكلم على تراكيب معينة، من بين اختيارات متاحة له في البنية العميقة، "ويصبح وصف الجملة أو العبارة تحديدًا للاختيارات التي قام بها المتكلّم من مجموعـة من الاختيارات الممكنة والمتاحة له، وهو في الوقت نفسه تحديد لعلاقة ما وقع عليه الاختيار بما لم يقع، فاختيـار جملة: (زيد ألقى الكرة) له علاقة بجمل أخرى وثيقة الصلة بهذه الجملة لم تُختر، مثل: ألقى زيد الكرة، الكرة ألقى زيد، الكرة ألقاها زيد، الكرة ألقيت"[4].

وكلّ جملة من الجملة المقترحة تختلف عن الأخرى، بالنظر إلى اختيارات محدّدة، ووصف الجملة لا يعدو أن يكـون وصـفًا لاختيـارات تمّت فعلًا، ففي جملـة: (ألقى زيـد الكـرة) يظهـر أنَّ الصـيغة الخبريـة هي المختارة، وفي ذكر المفعول به دليل على أنّ تعدية الفعل إلى مفعول به قد اختيرت، وذكر الفاعل (زيد) دليل على أنّ المتكلم أدمج وظيفتي: الفاعليّـة والإسـناد في (زيـد)، في حين يتخلى عن الفاعليـة في جملـة: (الكـرة ألقيت)، فالكرة مسند إليه، ولكنها ليست فاعلًا، بل هي مفعول به في المعنى، والمتكلّم هو من يختار أنْ يـدمج وظيفتين أو لا يدمجهما"[5]. ذلك أنّ علم المعاني نفسه يرشدنا إلى الطريق المناسب لاختيار التّراكيب اللغويّـة الملائمة للموقف، كما يرشدنا إلى جعل الصورة اللفظية أقـرب مـا تكـون دلالـة على الفكـرة الـتي تخطـر في ذهن المتكلّم، فهو يبحث في الجملة الواحدة والجمل المتعددة، ويمتد إلى البحث في النصّ بوصـفه تعبـيرًا عن موقف معيّن، قـال السكّاكي فيـه: "علم المعـاني هـو تتبّـع خـواصّ التّـركيب في الإفـادة، ومـا يتّصـل بهـا من

[2] () المعجم الوسيط (مَجْمَع اللغة العربيّة القاهرة)، مكتبة الشّروق الدّوليّة، الطّبعة الرّابعة 1325ه - 2004م. (مادة: وظف).
[3] () الحناش، محمد: البنيوية في اللسانيات، دار الرّشاد الحديثة، الدّار البيضاء - المغرب 1980م، ص: 96.
[4] () نحلة، محمود: علم اللغة النظاميّ، مدخل إلى النظرية اللغويّة عند هاليداي، ملتقى الفكر، الطبعة الثانية، 1422ه - 2001م، ص: 54 - 55.
[5] () السابق، ص: 55.

الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره، وأعني بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمّن له فضل تمييز ومعرفة، وهي تراكيب البلغاء لا الصادرة عمّن سواهم"[6]

وفي هذا البحث نقف على بابٍ من أبواب علم المعاني هو: **الخبر**، فَنَتَبيّنَ عوارضَ التَّركيب فيه من خلال ما تيسّر في مقامات الهمذانيّ، آخذين بالاعتبار النّسق الوظيفي للكلام الذي كان مدعاة لاختيار تركيب ما دونما سواه، في كلِّ مَوْطنٍ مُختار من المقامات.

الخبر

الخبر ما يصحّ أنْ يقال لقائله إنّه صادق أو كاذب، فإن كان الكلام مطابقًا للواقع كان قائله صادقًا، وإن كان غير مطابق للواقع كان قائله كاذبًا، وإنما ذلك بالنظر إلى مفهوم الكلام الخبريّ ذاته، دون النظر إلى المخبر أو الواقع[7].

وللخبر ركنان أساسيان، المسند والمسند إليه، وما زاد على ذلك غير المضاف إليه وصلة الموصول فهو قيد، والخبر ينقسم إلى قسمين: الجملة الاسمية والجملة الفعلية، والاسمية تفيد بأصل وضعها ثبوت الشيء للشيء، وليس غير، فجملة: (الناجح مسرور) لا يفهم منها سوى ثبوت شيء للناجح، وهو السرور. لكن الاسمية قد يأتيها من القرائن والدلالات ما يخرجها عن أصل وضعها، فتفيد الدوام والاستمرار، كأن يكون الكلام في معرض المدح أو الذم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ (الانفطار،الاية: 13-14)، فالأولى سيقت في معرض المدح والثانية في معرض الذم، والمدح والذم كلاهما قرينة.

ويبدو أنّ النُّطْقَ بالكلام والتلّفظ به وإخراجه إلى حيّز الوجود يأخذ صورة من صور الاستعمال، ويبدأ بالانزياح التَّدريجيّ عن النِّظام التَّجريدي الذِّهْنيّ، فعادة ما تعتري الجملة الاسمية العوامل المختلفة كالنواسخ أحيانًا، ليصل المتكلم إلى مراده، وتتعالق بها أحيانا أخرى لواصق من مثل التوابع والمضاف إليه والحال.. وكلها ترفد الجملة بدلالات إضافيّة حين النظر إلى هذا التركيب أو ذاك نظرةً وظيفية في السياق الواردة فيه، ومما يُعدّ- كذلك- إضافة تذكر وتخرج الجملة الاسمية عن أصلها التجريدي "أن يكون خبر المبتدأ جملة فعليّة، كأن نقول: (الدولة تكرّم العاملين من أبنائها)، وهنا لا تفيد الجملة الاسمية الثبوت كما هو في أصل الوضع، وإنما تفيد التجدد، إذ إنّ معنى التكريم متجدد غير منقطع"[8].

أما الجملة الفعليّة فموضوعة أصْلا لإفادة الحدث في زمن معيّن، فإذا قلت: (عاد المغترب إلى وطنه، أو يعود المغترب إلى وطنه، أو سيعود المغترب إلى وطنه)، فتفيد الأولى العودة في الماضي، وتفيد الثانية

---

[6] () السكّاكي: مفتاح العلوم، ضَبَطَه وكتب هوامشه وعَلّق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، الطَّبعة الأولى 1403ه ـ 1983م، ص: 161

[7] () هناك أخبار مقطوع بصدقها لا تحتمل كذبًا، وهناك أخبار مقطوع بكذبها لا تحتمل صدقًا، ومن الأخبار المقطوع بصحتها ولا تحتمل كذبًا البتة أخبار الله تعالى عن كلّ ما يخبرنا الله به، واخبار رسله، والبديهيات المألوفة من مثل: السماء فوقنا والأرض تحتنا، وماء البحر مالح وماء النهر عذب. ومن الأخبار المقطوع بكذبها ولا يحتمل الصدق: الأخبار المناقضة للبديهيات، نحو: الجزء أكبر من الكل، والأسبوع خمسة أيام، وكذلك الأخبار التي تتضمن حقائق معكوسة، نحو: الأمانة رذيلة، والخيانة فضيلة؛ لكنّ هذه الأخبار المقطوع بصحتها أو المقطوع بكذبها، إذا نظرنا إليها ذاتها دون النظر إلى قائلها أو إلى الواقع كانت محتملةً للصدق والكذب، شأنها في ذلك شأن سائر الأخبار. انظر: (عتيق، عبدالعزيز: علم المعاني، دار النهضة العربيّة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، 1430هـ ـ 2009م، ص: 47).

[8] () عتيق: علم المعاني، ص: 49.

العودة في الحاضر، وتفيد الثالثة العودة في المستقبل، ولكنّ الفعلية أيضا قد تفيد الاستمرار والتجدد بالقرائن، كما في قول المتنبي مادحًا سيف الدولة:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتـي علـى قـدر الكـرام المكارم

وتعظُم في عين الصغير صغارها وتصغُر في عين العظيم العظائم

فالمدح هنا قرينة دالة على أنّ إتيان العزائم على قدر أهل العزم، وإتيان المكارم على قدر الكرام، وعظم صغار المكارم في عين الصغير، وصغر العظام في عين العظيم؛ إنما هو أمر متجدد مستمر على الدوام[9].

وهكذا يتهيّأ التركيب اللغويّ ليكون النمط المناسب لاحتواء المعنى المراد، واستقبال الدلالة المستهدفة، يعضده في ذلك السياق والمقام والملابسات التي تجعل التركيب موازيًا للمعنى المقصود، وهنا يتجلى دور المتلقي في تتبّعه والكشف عنه وإظهاره، وقد سبقت الإشارة إلى قول السكّاكي في الحديث عن التراكيب، وأنّ المقصود بها التراكيب الصادرة عمّن له فضل تمييز ومعرفة، وهي تراكيب البلغاء لا التراكيب الصادرة عمن سواهم، ثمّ إشارته إلى المتلقي بقوله: وأعني بالفهم؛ فهم ذي الفطرة السليمة.

ولا يخالج النفس شكّ في أنّ مقامات الهمذاني هي فنّ في حدّ ذاتها في التراكيب، وأنّ الصنعة اللغوية فيها هدف مقصود بذاته؛ ولذا حُقّ النظر فيها وتتبُّع خواص تراكيبها الخبريّة، وما فيها من عوارض وعدولات تشكّل طاقة استيعابيّة لمراد مبدعها.

ففي **المقامة الأسديّة** يأخذ السرد منحىً إخباريًّا بصيغة الماضي في مطلعها، إذ يقول: حدّثنا عيسى بن هشام..، وفي هذا لفت لانتباه القارئ والمتلقي، وتأسيس للاستمتاع بما هو قادمٌ من أحداث وقصّ وسردٍ، ثمّ يقع الالتفات بصيغة المضارع المسبوق بالفعل الناقص (كان)، يقول: **"كان يبلغني من مقامات الإسكندريّ ومقالاته ما يصغى إليه النفور، وينتفض له العصفور.."** ولا يخفى ما في التركيب من صنعة نحوية، أساسها إدخال الفعل الناقص (كان) قبل الفعل المضارع (يبلغني)، ولم يرد جواز إدخال الفعل الناقص على المضارع بهذه الصورة، وهي ربما تصنّف من قبيل الأفعال محذوفة الفاعل، من مثل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[10] (يوسف، الآية: 35)

فالهمذاني يلجأ إلى الأسلوب الخبريّ بصيغة الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع، مسبوقًا بالفعل الناقص (كان)، وليست الجملة الفعلية في موضع الخبر لكان، إلا بالتأويل وليّ التركيب في محاولة للبحث عن اسم لكان، فيمكن تقدير اسمها: البلوغ، أي: كان البلوغ يبلغني، أو يقال: وقعت كان هنا بلا اسم حملا على الفعل الذي يقع بلا فاعل عند من يجيز.

وبالرغم ما يقال في اسم كان تأويلا أو حذفًا، فالملاحظ أنّ الهمذاني أدخل أداة الزمن على الفعل المضارع، فالفعل الناقص هنا ذو دلالة زمنيّة بلا حدث، وهذا السبك بين زمانين في آنٍ معًا ذو دلالة يريدها الهمذاني ويركّز عليها في مقاماته، إذ يُعرض في كثير من الأحيان تقلبات الزمن وجوره حينا، وعدله حينا آخر. وإنّ من أهداف الهمذاني في مقاماته أن يعرض تردّي الأحوال في زمانه، ومن استراتيجيات الهمذاني

[9] **() السابق، ص: 49.**

[10] **() ينظر: ابن الحاجب، جمال الدّين عثمان بن عمر بن أبي بكر المصريّ المالكيّ: الكافية في النحو، تحقيق: صالح عبدالعظيم الشاعر، الناشر: مكتبة الآداب ـ القاهرة، الطبعة الأولى 2010م، الجزء الثاني، ص: 599 ـ 601.**

في معالجة التردي المقابلة بين الماضي والحاضر، فيفهم حنينه للماضي، أو تطلعه لمستقبل أفضل من الحاضر، والنتيجة هذا التلاعب بأدواته اللغوية، فيدخل الزمن على الزمن ليضعهما في نسق واحد، يُشرك فيه القارئ في تصوّر ما يريد.

ولمّا جاء المقام مقام ثناء على الإسكندري في الحاضر (يبلغني) على لسان عيسى بن هشام، وكان الهمذاني ناقما في الوقت نفسه على الأحوال في زمانه؛ فقد آثر أنْ يسبق الحاضر أداة الماضي (كان)، وبذلك أوصل الدلالتين: دلالة إعجابه بمقالات الأسكندري في الحال، ودلالة النقد والهجوم على الحاضر وأوضاعه وظروفه، كأنه يقول: برغم هذا الملحظ البلاغي الإسكندريّ البارع، إلّا إنّه سرعان ما ينزلق بالحاضر المدلول عليه بالفعل المضارع (يبلغني) ويحجبه بالدلالة الزمنيّة للماضي المدلول عليها بالفعل الناقص (كان)، وإلا فإعجابه بمقالات الإسكندري بلغت حدّا جعل النفور يصغى إليه، والعصفور ينتفض له.

ومعروف أنّ نصّا كالمقامة يحشد من الأدوات اللغوية والروافد الخطابيّة ما يمكّن المعاني والدلالات في نفس المتلقي، فبعد أنّ استخدم المضارع وهو ذو دلالة على التجدد والاستمرار في الحدث، مكّن هذه الدلالة بالمجاز والتصوير، فجعل النفور يصغى إليه، وهي صورة خياليّة شُبّه فيها النفور بالإنسان الذي يصغي، وليس الأمر مجرد تصوير شيء بشيء، وإنّما هو نقل وادّعاء، فنُقل النفور من حقله في عدم الإدراك، إلى حقل الآدميّة، ثمّ ادّعُي فيه صفة الإصغاء، ثمّ التصوير التمثيلي في العصفور.

جاء في شرح مقامات الهمذاني: "والنفور الشديد لا يستميله إلا ما بلغ في السلطة على القلوب غايتها، أو هو من أصغى إلى الحديث إذا استمعه، والنفور لا يستمع إلى الحديث إلّا إذا بلغ من قلبه أن يقيّد إرادته عليه، ولا يكون الحديث كذلك حتّى يكون من البلاغة في أقصاها. أمّا انتفاض العصفور واهتزازه فهو تمثيل لما يحدث في الأنفس من الطّرب، ويظهر على الجسم من علائمه عند استماع مقامات الإسكندريّ، حتّى كان ذلك يؤثّر في الطّير على عجمته، فضلا عن الإنسان في نطقه."[11]

وبناء على ما سبق فالقول إنّ الهمذانيّ يلجأ في النسق الوظيفي لاستخدام الأسلوب الخبري وبتركيب الجملة الفعلية تحديدًا، وليس بتركيب الفعلية البسيط، وإنما بما يثير همّة القارئ من إسناد جملة المضارع إلى الزمن الماضي باستخدام أداة الزمن وهي الفعل الناقص (كان)، ليثني الثناء المتجدد على مقالات الأسكندري ومقاماته، ويصيب الزمن الحاضر في الوقت نفسه بنقده، فجاء التركيب: (كان يبلغني..) مؤدّيا لوظيفة أرادها الكاتب، ليمتدح من جهة، ولينتقد الزمن الحاضر من جهة أخرى، فكان له ذلك بما توافر من أدوات لغوية وروافد فنيّة، وألفاظ معجميّة، فحين جعل النفور هو الذي يصغي فقد خلق مفارقة عجيبة، إذ كان أثر القبول والاستجابة لبلاغة الإسكندري على ألدّ أعداء الإصغاء وهو النفور نفسه، ولمّا أراد أن يعبّر عن عنصر الحركة في التعبير عن الإعجاب فقد استدعى صورة العصفور، وهو ربما خير ما يعبّر عن الاهتزاز والانتفاض والطرب، يُضاف إلى ذلك اللجوء لاستراتيجية التقديم والتأخير، إذ قدّم الجار والمجرور الدّال على الإسكندري، في موضعين هامّين، في الأوّل قوله: **(يصغى إليه النفور)**، وفي الثاني قوله: **(ينتفض له العصفور)**، وفي التقديم إشارة بليغة إلى أهميّة المتقدم، وهذا يتلاءم والمعنى المراد.

---

[11] **() الهمذانيّ، أبو الفضل أحمد بن الحسين: مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ، قدّم لها وشَرح غوامضها: الإمام العلّامة الشيخ محمّد عبده، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، الطّبعة الثّالثة 1426ه ـ 2005م، ص: 35.**

وجملة الأمر أنّ في قول عيسى بن هشام (كان يبلغني..) **عارضا تركيبيا** هو الحذف لاسم كان، ولو ذَكَره لكان الخطاب بالجملة الاسمية الدالة على الزمن الماضي بوجود (كان)، وقد قِيلَ فيما سبق هو لا يريد الحديث عن الماضي وحده، إنما يريد إدخال الزمانين الحاضر والماضي في صورة واحدة، ليقابل بين حالين كما ذُكِرَ في الفقرات السابقة، ومن المتاح للباحث أن يقول إنّ في كلام عيسى استبدالا، فلما كان فيه إشارة إلى الماضي فقد يعبر بـ: (قد بلغني..)، أو (بلغني..)، وهنا سيخلص الخطاب إلى الماضي وحده، وما هذا بمقصود، فجعْل التركيب على صورته المنطوقة من استبدال وحذف أكثر كشفا للدلالة التي يتوخاها.

وفي موطن آخر من مواطن الأسلوب الخبري في المقامة الأسدية، يقول الهمذاني: **(وأنا أسأل الله بقاءه)**، فثمة أسلوب خبريّ بصيغة الجملة الاسميّة، المبتدأ فيه الضمير **(أنا)**، والخبر جملة فعليّة فعلها مضارع، والسؤال ذو شعبتين، **الأولى**: لِمَ لم يستخدم الجملة الفعلية أصلا بديلا للجملة الاسميّة؛ فيقول: وأسأل الله بقاءه؟ **والثانية**: لِمَ استخدم الخبر بصيغة الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع؟

والجواب على السؤال أنه أراد دلالة مشتركة، تتحقق بالدمج بين الجملة الفعلية والاسمية. والبدء بالجملة الاسمية هو إرادة للتحقق والثبوت وتأكيد أمر الاستمتاع ببلاغة الأسكندري والنهل منها، ثم تجدّدها واستمرارها؛ "وذلك للنهوض بوظائف متعددة داخل المقامة، والحفاظ على البراعة اللغوية، والإسهام في بناء المقامة عبر مستويات مختلفة من السّرد، فهذه الجملة الاسمية الفعلية إثراء للبنية السرديّة للمقامة في تداخل الجمل والعدول عن المتوقع إلى ما هو غير متوقّع، ما يكشف عن تراكم الخبرة الفنية والمعرفيّة في بناء النص، كونه يستدعي عبر التفاعلات النصيّة التجارب الإبداعيّة ذات الخصوصيّة العربيّة في أوجها، كي يستفيد منها في السياق الذي توضع فيه، وليؤكّد من خلالها على قضايا تؤرّقه"[12].

والمقصود مما سبق أنّ الهمذانيّ يوفّر لمراده في المقامة ما يؤهلها للقيام بدورها في تحقيق الدلالات والغايات التي لأجلها جاء بفنّ المقامات، ومن جملة ما يوفّر اللّغة في تراكيبها وأنماطها وعدولاتها.

والعارض التركيبي هو تقديم الفاعل (أنا) على الفعل (أسأل)، ونتيجة هذا التقديم استحالت الجملة الفعلية اسميةً، وهذا التركيب توسّط بين الاستهلال الذي هيّأ المتلقي للأحداث، وبين الثناء على أبي الفتح الإسكندريّ حين ألمح إليه بل صرّح في قوله: (حتى أُرزق لقاءه، وأتعجَّب من قعود همَّتِهِ مع حسن آلته..)، والتقديم بالضمير العائد إلى عيسى بن هشام يرجع إلى أنّه صانع الأحداث في هذه المقامة، فهو الراوي القائم بدور البطل، وكان أبو الفتح هدفًا له في رحلته. وقد مرّت هذه المقامة بأحداث كثيرة متسلسلة بدءا من نية عيسى السفر إلى حمص، وانتهاء بلقاء عيسى أبا الفتح وحديثه معه؛ ولذا حتى يكون عيسى محورا أساسيا في هذه الأحداث قدم نفسه بالضمير (أنا)، متبوعا بالخبر الذي جاء جملة فعلية فعلها مضارع، ليكون فيها دلالة على الاستمرارية في الحدث، وهو بقاء أبي الفتح على امتداد أحداث المقامة، ليلتقيه في ختامها.

وفي موطن ثالث جاء في المقامة الأسديّة قول الهمذاني: **"وقد ضرب الدّهر شؤونه بأسدادٍ دونه"**، والحديث عن الإسكندريّ، والتّعجب منه مع حسن آلته، أي صناعته في النظم والنثر، كيف لم يصل حاله إلى الشرف اللائق بحسن الآلة، وعبّر عن هذا القصور بقعود الهمّة، فكأن الهمة حاملة لحال صاحبها تسير به إلى المقام المعدّ له، فإذا قعدت به بقي دون ما كان ينبغي له.

---

[12] **() الشكعة، مصطفى: بديع الزمان الهمذاني، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الرابعة، 2001م، ص: 35.**

وبالرغم من أنّ موضوع المقامة نيّة عيسى بن هشام السفر برفقة جماعة إلى مدينة حمص، وما صاحب ذلك من مشاهد، إلى أنّه لا ينسى دور البطل في المقامة، حيث هو الغاية من الرحلة نفسها، وحرص على أن يبين ملامحه وصفاته في مطلع المقامة، ومنها بالتأكيد الصفات اللغوية والبراعة الأدبيّة، وربما كان من أهداف عيسى بن هشام في إخفاء الإسكندري في الأحداث قبل أن يلتقي به مرة أخرى في نهاية المقامة؛ أنْ برّر ذلك الاختفاء بقوله السالف ذكره: **"وقد ضرب الدهر شؤونه بأسدادٍ دونه"**، فقد أرجع عدم بلوغه ما يريد إلى صروف الدهر التي حالت دونه، مستخدمًا الأسلوب الخبريّ المؤكّد بالأداة (قد)، وجاء هذا الأمر بعد أن طمأن الهمذاني متلقيه إلى علوّ الإسكندري في ميدان البلاغة والخطاب، حين قال في مستهلّ المقامة: كان يبلغني..

وحين عدل الهمذاني عن الأسلوب الخبري بصيغة الفعل الماضي إلى تأكيد الفعل نفسه، فقد نقل الخبر من حالة الثبوت والتحقق الذي قد يقلل من مكانة الأسكندريّ، إلى حالة التأكيد، تأكيد عمل الدهر وشؤونه وصروفه، لا تأكيد النقص في قدرات الهمذاني، فالجملة الخبرية الخالية من المؤكدات برغم بساطتها إلا أنها دالة على تحقق الأمر وثبوته بما لا يدع مجالا للشك أو النقاش. أما دخول المؤكّد فهو يكشف عن حالة من الريب والشك والتساؤل؛ هل ثمة نقصٌ في قدرات الإسكندري البلاغية؟ فتأتي الجملة الخبرية المؤكّدة للمعنى، إذ هو الدهر وصروفه.

وبالنظر إلى السياق الذي وردت فيه الجملة يتبين كيف وقع الاختيار على الأنسب في ضوء النظرية الوظيفيّة، فالتركيب الفعلي الخبري المستعمل يرشد المتلقي إلى الصورة الذهنية المرسومة لدى الكاتب، فلم يرد الكاتب من الجملة الفعليّة معناها الأصلي، وهو إفادة الحدث في زمنٍ معيّن، بل أراد مستعينا بالقرائن نسبة الحدث إلى الدهر فيما يقع للإسكندريّ، فقد أكّد الفعل بالأداة (قد)، وهي من مؤكّدات الخبر[13]، ثمّ "استعان بقرينة التعدية، وهي قرينة معنوية، ويدلّ عليها المفعول به (شؤونه)، والتعدية قرينة تندرج تحت قرينة أخرى، هي قرينة التخصيص، فقول الهمذاني: (ضرب الدهر شؤونه) مخصص بوقوع الضرب على (شؤون)، أي أنّ وقوع الفعل على المفعول كان قيدًا في إسناد الضرب إلى من أُسند إليه، وكان أيضًا جهةً في الضرب حالت بينه وبين أن يفهم على إطلاقه، فطوعته لأن يفهم من جهة وقوعه على (شؤون)"[14].

وهنا لا ينظر إلى التركيب على أنه مكوّن من فعل وفاعل ومفعول حسب، بل يُنظر إلى ما تؤديه عناصر التركيب من وظائف في سياقها، فكل عنصر يخصّص التركيب بمعنى معيّن لا يكون دونه، يقول الجرجانيّ: "كذلك إذا عدّيْتَ الفعل إلى المفعول فقلت: "ضرب زيد عمرا" كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه، فقد اجتمع الفاعل والمفعول في أنّ عمل الفعل فيهما إنّما كان من أجل أن يُعلم التباس الذي اشتُقّ منه بهما، فعَمِل الرفع في الفاعل ليعلم التباس الضرب به من جهة وقوعه منه، والنصب في المفعول ليُعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه"[15].

وهكذا فقد أصاب الهمذاني في النظم اللغوي في قوله في حال الأسكندري**(وقد ضرب الدهر شؤونه)** في وقوع الفعل من فاعل مخصص وهو الدهر، على مفعول مخصص أيضًا وهو (شؤون) الإسكندري، الذي حدّده بلاصقة المضاف إليه الضمير (الهاء)، ليتوافق غرض التفنن اللغوي في المقامات بعامة مع التراكيب

---

[13] () عتيق: علم المعاني، ص: 57

[14] () حسّان، تمام: اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثّقافة، الدّار البيضاء ـ المغرب، الطّبعة الأولى 1994م، ص: 194 - 195.

[15] () الجرجانيّ، عبدالقاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبدالحميد هنداويّ، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، ص: 153.

الدالة على مضامينها، مع غرضه في المقامة الأسدية بخاصة في إظهار القدرة اللغوية والبراعة التصويريّة والمهارة السردية.

وقبل أن ينتقل الهمذاني إلى الأحداث يُطْمئِنُ قارئه إلى استخدام لغة عالية تعلّم الناشئة وتغني المثقفين والبلغاء بنسجها المتماسك المؤدي لوظيفته على النحو المُرضي. فبالإضافة إلى ما ذُكِرَ في شأن الجملة الفعليّة الخبرية، يأتي بالمتعلقات الجار والمجرور والظرف، أما الجار والمجرور (بأسدادٍ) فهي متعلقة بالحدث لا بالمضي المكتسب من (ضرب)، يقول تمام حسّان: "إنّ التعلق بين الجار والمجرور وبين ما تعلق به إنّما يكون بمعنى الحدث لا بمعنى الزمن"[16]، وعليه فقد تعلّق المجرور (أسداد) بـــ (ضرب) بواسطة حرف الجر، ولم يتعلق بالمضيّ المستفاد من الفعل (ضرب).

وكأن الهمذاني نفى عن البطل الإسكندري الاضطراب اللغوي في الزمن، إنما هي حالة أصابه الدهر بها، ولا وعاء لها زمنيًّا، فهي سرعان ما تزول، ويكمل هذا المعنى قيد التخصيص الظرف (دونه)، فالسياق ينبئ عن قصد خفيّ، إذ تكشف الألفاظ عن عمل الدهر في شؤون الإسكندري اللغوية، كأنه يمتلك ناصية اللغة وبراعة التأليف وقوة التعبير، ولم يدلّ لفظ من التركيب على انحطاط في المستوى اللغوي له؛ فهذا التركيب يبدأ بـــ الفعل المؤكَّد، والتأكيد لتصرّف الدهر لا لنقص في البطل، ثم التصريح بلفظ المفعول به وبعده قيد الجار والمجرور والظرف.

ونقف على موطن آخر من مواطن الجملة الخبرية في المقامة الأسدية، جاء بصيغة الجملة الاسمية، يقول الهمذاني: **"فإذا السبع في فروة الموت، قد طلع من غابه، منتفخًا في إهابه، كاشرًا عن أنيابه.."**[17] ، والحديث هنا عن مشهد لقاء عيسى بن هشام للأسد، وهجومه على الجماعة، "وفيه وصف مفصّل للأسد عند ظهوره، حيث تظهر عليه صفات القوّة والشراسة"[18].

وفي القول السابق **عارض تركيبي**، عَكَس القوة الأسدية، وتضامت الألفاظ للدلالة عليها، فظهور الأسد في الغابة ناسبه استخدام إذا الفجائيّة، التي يستفاد منها في التركيب دلالتان اثنتان؛ **الأولى**: مناسبتها للمقام، حيث برز الأسد لعيسى بن هشام وصحبه في صورة تثير الخوف والرعب، **والثانية**: في استخدام إذا الفجائية في التركيب، بحذف الخبر إن كانت حرفًا، وتسدّ مسدّه إن كانت اسمًا، وفي كلتا الحالتين لجأ الهمذاني إلى تركيب محوّل معدول عن أصله، فيه الحذف وفيه الأداة (إذا) المحققة لعنصر المفاجأة الملائم للمقام.

وبالتالي تحقق عنصرُ الاختيار من متعدد في التركيب اللغوي وفق ما تقتضيه وظيفية اللغة، ووفق ما يقتضيه المقام، وأيًّا كان خبر المبتدأ الأسد، محذوفًا أو سدّ مسده إذا الفجائية، ففي الحالين وقع حذف في التركيب، وهو أكثر ملاءمةً ومناسبة، فحالة الرعب التي أثارها ظهور الأسد يكفي للتنبيه لها أن يقال: (الأسد)، دون حاجة إلى التصريح بالخبر، وهو أسلوب يقارب أسلوب التحذير في العربيّة، فحين يقول متكلم لآخر: (الأفعى) في مقام تحذيره منها، فقد استطاع إيصال معنى التحذير دون حاجة إلى ذكر خبر الأفعى أو فعل يسبقها من مثل: احذر، إضافة إلى كون المقام لا يسمح بذكر الفعل، بل يُكتفى بالإشارة إلى المحذر منه.

---

[16] **() حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص: 202.**

[17] **() الهمذاني، ص: 37.**

[18] **() شاكي، كمال: المقامة الأسدية لبديع الزمان الهمذاني، دراسة في البنية السردية، مجلة الآداب واللغويات، العدد 10، ديسمبر 2019، ص: 369.**

ومن حرص الهمذاني على أن ينهض التركيب بوظيفته فقد استخدم المجاز في الإشارة إلى قوة الأسد وشراسته، فقد وصفه بقوله: **(في فروة الموت)**، فإنّما يلبس فروة الموت الموت نفسه، فكأنه تخيل أنّ الأسد هو الموت خرج في فروته، وهنا حرص الهمذاني على تقديم المعنى عبر تحوّلاتٍ في التركيب، مع نقل الأسد إلى حقل الموت، ليدلّ على شدَّة الخوف التي أصابت الجمع، وفي الوقت نفسه شخّص الموت، فكأنّ الأسد هو الموت فيما يثيره في النفوس من فزع، والموت هو الأسد في حالة التشخيص، وهذه التحولات تدلّ على حرص الهمذانيّ على إلحاق الجملة الاسميّة بما يجعلها قادرة على تلبية احتياجات الظروف المؤثرة في الموقف اللغوي.

وفي قول الهمذانيّ أيضًا عطفًا على ما جاء في وصف الأسد في شراسته **عارض تركيبي** آخر هو الحذف: **"خطب ملمّ، وحادث مهمّ"**، والكلام على صيغة الجملة الاسميّة محذوفة المسند إليه في موضعين، إذ التقدير: فالخطب خطب ملم، والحادث حادث مهم، وما حصل هو سبْق اللّسان إلى ما في الذهن، وما تكنّه النفس وتريده، فالأمر لا يحتاج خبرا فعليّا يتجدد ويستمر أو يقرّر في زمن معيّن، وإنما هو أشبه ما يكون بحقيقة نفسيّة إن صحّ التعبير، جاءت على نمط الجملة الاسميّة، دون حاجة إلى ذكر المبتدأ فيها، ولذا وقع الانسجام في مبادرة الفتيان في النهوض حين قال: (وتبادر إليه من سرعان الرِّفقة فتىً).

ولَمّا كان الحديث عن النسق الوظيفي للّغة فقد أودع الهمذاني في السياق ما يرفد المعنى المستفاد من الجملة الاسمية، (خطب ملمّ، وحادث مهمّ)، فالخطب العظيم والحدث الجسيم بحاجة إلى قوة لمواجهته، وإن كانت مواجهة لغوية، فجاء حالًا عناصر في التّركيب تلبّي الطموح، فلدينا الفعل (تبادر)، واسم الفعل (سرعان)، والاسم (فتى)، وهي مفردات تلبي حاجة الموقف، فالخطب يحتاج إلى المبادرة والسّرعة والفتوّة وقد تحققت، وليس بالضرورة أن يكون الفتى المبادر قد استطاع أن يصرع ذلك الأسد في شراسته وارتدائه فرْوة الموت، لكن اللّغة أدّت وظيفتها في هذا النَّسْج البديع.

والحاصل أنّ "الأسد قد أجهز على الفتى وصَرَعَه أرضًا دون أن يقتله، فينقذه عيسى بن هشام ويطعن الأسد طعنة ويموت من شدّة خوفه، فيدفنه صحبُه قبل مضيّ عيسى وصحبه في الرحلة، ليتبيّن لنا خطر أعظم من خطر الحيوان، وهو خطر الإنسان حين يفقد القيم والمبادئ الإنسانيّة"[19] .

يصبح دور الجملة الاسميّة وما فيها من عدول رئيسًا في لفت انتباه القارئ إلى الخطر الحيوانيّ الداهم، ودفع الأحداث إلى الأمام، والوصول إلى المبتغى، وبسط الأحداث واحدها تلو الآخر، وبيان وعورة المسلك وما فيه من شرور يرتكبها الإنسان بحقّ أخيه الإنسان، ولعلّ الجملتين الاسميتين: **(خطب ملمّ، وحادث مهمّ)** تشكّلان بؤرة هذه الأحداث وما فيها، وهما أيضا مركز التكثيف الدلاليّ، فالرحلة في ذاتها إلى حمص عناء ومشقة، ومن المتوقّع أن يواجه فيها عيسى وصحبه عثرات شتى، وإن استُثنيت العثرات المادية الطبيعية كوعورة الطريق وما فيها من حاجة إلى الطعام والشراب وبعد الشقّة بين الهدفين؛ فأصعب منها ما واجهوا من مكر الإنسان نفسه وخداعه. ولذا فهذا الخطب وتلك الرحلة تحتاج إلى العُدّة والزّاد الكافي من الرفقة الفرسان والسلاح، ولولا هذه العدّة ما استطاع عيسى بن هشام أن يصل إلى حمص وما استطاع أن يلقى الإسكندريّ، ومن ثمّ أصبحت اللّغة قادرة على أداء وظيفتها في نقْل الأحداث بصورة مفصّلة متسلسلة،

[19] **() المقداد، محمود: صفة الأسد لأبي زبيد الطّائي، مجلة جامعة دمشق، المجلّد 29، العدد: 1 - 2، 2013م، ص: 71.**

وأصبحت كذلك قادرة على نقل عيسى بن هشام إلى حمص ولقاء الأسكندريّ، ولقاؤه إياه في حدّ ذاته هدف من أهداف عيسى بن هشام.

وحين ننسُب إلى اللّغة هذه الوظيفة أو الوظائف فلا عجب ولا مبالغة، "فمقامات الهمذانيّ بعامّة تقتضي وجود أساليب ناجعة يستعملها الراوي أو البطل للإيقاع بالضحيّة لتهيئته للبذل والعطاء، ولعلّ أوضح الأساليب وأنجعها هو الخديعة اللغويّة عبر استعمال المهارات البلاغيّة حينًا، ومهارات القصّ حينًا آخر، وهذا ما يؤكّده عيسى بن هشام في وصف الإسكندري مرارًا، فهو رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه، ولولا فصاحته تلك ما استطاع أن يحتال على الناس وينال مبتغاه، والمقامات كلّها لا تصوّر الإسكندريّ صاحب حرفة أو مهنة، وليس بين يديه سلاح أو أدوات تعينه في حلّه وترحاله، فكلّ ما يحتاجه من زاد موجود في لسانه وملكته اللغويّة ومخزونه اللغويّ"[20].

من هنا كان حقّا النظر في النسق اللغوي بعين الفاحص المتبصّر، ثمّ النظر إلى الجملة العربية وتحوّلاتها باعتبارها غاية من غايات النص، وسببًا في الوصول إلى الدلالات التي تقدّمها الدراسة.

وفي المقامة البصريّة تظهر ملامح الأسلوب الخبريّ في تنوعّه بين الجملة الفعليّة والجملة الاسميّة، فقد احتوى مطلع المقامة على تتابع الجمل الفعليّة الدالة الملائمة لحال عيسى بن هشام ورفقته، يقول: **"حدّثنا عيسى بن هشام قال: دخلتُ البصرة وأنا من سنّي في فتاء، ومن الزيّ في حبر ووشاء، ومن الغنى في بقر وشاء، فأتيت المربد في رفقة تأخذهم العيون، ومشينا غير بعيد إلى بعض تلك المتنزهات.."**[21]

والملاحظ أنّ الراوي يؤثر الجملة الفعليّة حين يكون الحديث عن الاستمتاع والترفه والتلذذ، ويؤثر الجملة الاسمية حين يكون الحديث عن الغنى والثراء والنعمة، فثمّة تناسق داخلي في بنية الأحداث والمقصد المراد، إذ يُفهم أنّ عيسى كان صاحب نعمة وغنى وثراء، وصاحب النعمة حريّ به أن يتنقّل بين الأماكن والمدن مزهوًّا بنفسه ومفتخرًا بماله، ولذا قيل: (**دخلت** البصرة.. **فأتيت** المربد.. **ومشينا** إلى بعض تلك التنزهات.. **وملكتنا** أرض فحللناها)، وترتبط الجملة الفعلية الأولى (دخلت) بالقيد اللغويّ الحال الذي جاء على صيغة الجملة الاسميّة: (وأنا من سنّي في فتاء).

ويحاول عيسى بن هشام أن يعطي الحدث حيوية في الدلالة، ويقرّب المعنى من ذهن السامع ويشركه في تصوّر حال الرغد وسعة العيش، فلم يقل (دخلت البصرة فتيّا) إذًا لكانت جملة فعلية مخصّصة بقيد الحال، لكنّها تأخذ نمطا اعتياديا برغم ما قد تقدّمه الحال من فائدة معنوية ووظيفيّة، وبإدخال الجملة الاسميّة المفيدة للحال في حيّز الجملة الفعليّة تتجلّى صورة الفتوة والغنى والنعمة في شخص ابن هشام، **(وأنا من سنّي في فتاء، ومن الزيّ في حبر ووشاء، ومن الغنى في بقرٍ وشاءٍ).**

فثمّة قيود حالية ثلاث تندرج في مظلّة الجملة الفعلية، وهي القيود المذكورة بين القوسين في الفقرة السابقة، وقد يكتفى ظاهريًّا بالقول إنّ ابن هشام كان ورفقته في نعيم ظاهر، لكنّ النظرة الفاحصة تحيلنا إلى ما في التراكيب اللغويّة من مقاصد إضافيّة، ذلك أنها تكشف عن ملامح المجتمع آنذاك في القرن الرابع

---

[20] () خليل، لؤي علي، وإسلام علي أبو زيد: مقامات الهمذانيّ واختبار الوظائف السرديّة، جامعة قطر، المجلّد: 16، العدد: 2، جوان 2021م، ص ص: 67 - 104.

[21] () الهمذاني، ص: 75.

الهجري، ففيه الفساد المالي والفساد الأخلاقيّ، وفيه أيضًا من تردي الأوضاع والطبقيّة المجتمعيّة ما هو بيّن.

وكأنّ ثمة صراع خفيّ وأيضًا جليّ بين فئات المجتمع وأنماطه، يحاول الهمذاني في المقامة أن يبسطه ويظهره ويسلّط الضّوء عليه ويعالجه، وليس وسيلة أقرب إلى الكشف عن هذا الصراع من الثراء اللغوي في الأنماط والتراكيب، فهذا عيسى بن هشام وصحبه فتية تأسر الناظرين في زيّها وزركشة ثيابها، أما غناهم فظاهر لا يحتاج دليل، كنّى عنه بقوله: (بقر وشاء).

وهذه الأوصاف التي تكفّلت بحملها الجمل الخبريّة فعلية واسمية، تمثّل جانبين مهمين في المقامة يدفعانها نحو الهدف، أما **الجانب الأول** فيمكن عدّه الجانب الشرير في شخصيّة عيسى ورفاقه، وأمّا **الجانب الثاني** يمثّل جانب الخير لأنه غناهم يعالج مشكلة الفقر فيما هو قادم من أحداث المقامة. ولتوضيح ذلك نقول إنّ الجانب الأول هو صورة الفئة المستأثرة بمقدّرات المجتمع وثرواته وخيراته، في مقابل الفئة المدقعة في الفقر التي لا تمتلك قوت يومها، وبالنّظر إلى الجانب الثاني الخيّر في عيسى بن هشام فهو يمثّل صورة البطل الذي يعالج الفقر عند من يعوزه الطعام والشراب.

ويدلّ الحوار في المقامة على جانبي الشرّ والخير بألفاظه، وذلك في قول الهمذانيّ: **"وهذه البصرة ماؤها هضوم، وفقيرها مهضوم، والمرء من ضرسه في شغل ومن نفسه في كلّ.."** فهذه العبارة تصوّر حالة الجوع والفقر في هذا القُطر، فلا أهداف للمرء سوى البحث عن لقمة العيش، وهو مطلبٌ يمثّل أبسط حقوق الفرد. وأما الجانب الخيّر فيمثله قول الهمذاني على لسان الأسكندريّ في حقّ عيسى بن هشام وصحبه: **"ولقد اخترتم يا سادة، ودلّتني عليكم السعادة، وقلت: قسما إنّ فيهم لدسمًا.."**، فهو يرى أنّهم أهل للمعونة والسند ودفْع حاجة الفقير.

وفي هذا الحوار من **عوارض التركيب** ما هو ظاهر، **أوّلها الاستبدال**[22]، استبدال المبني للمفعول بالفعل المبني للفاعل في **(ولقد اخترتم يا سادة)**، لأن التركيز منصب على الرفقة وعيسى، فحذف الفاعل الحقيقي واتجه الخطاب مباشرة إلى نائب الفاعل الضمير المقصود به هؤلاء، ولإظهار قيمتهم وإبراز دورهم تكرر ذكرهم بصيغة النداء (يا سادة). **وثاني** تلك العوارض الحذف المستفاد من القسم، **وثالثها**: تقديم خبر إن شبه الجملة على اسمها، في قوله: (إن فيهم لدسما)، والإشارة مرة أخرى إلى عيسى ورفقته، وهذان العارضان إضافة إلى العارض الأول يعضدان توجه المقامة القائل إنّ هؤلاء فتية أهل للعون والسند والمعونة، ويحاول النص أن ينطق بهذه الدلالات، ولو قيل: (اختاركم الناس، وفيكم النخوة..) لتبين هذا المعنى، وبتوظيف عوارض التركيب في النسق يزداد المعنى ظهورا وتتكثّف الدلالة، فيُقرّ حينئذ بدور النسق الوظيفي للغة من خلال الجملة الخبرية وما يعتريها من عارض.

وهذا التّشعب في الحديث عن الدور الذي يضطلع به عيسى بن هشام في معالجة مشكلة مجتمعيّة راسخة الجذور، تكفّلت بإظهاره اللّغة من خلال مطلع المقامة بالجملة الخبرية الفعليّة وقيودها التخصيصية التي جاءت أحوالا على صيغة الجملة الاسميّة.

---

[22]() **الاستبدال عملية تتم داخل النص، إنه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر، ويُعدّ علاقة اتساق، وهو يتمّ في المستوى النحوي المعجميّ بين كلمات أو عبارات، ويعتبر الاستبدال وسيلة أساسية معتمدة في اتساق النص. انظر: خطابي، محمّد: لسانيّات النّص مَدْخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربيّ، ص: 19**

وتبدو ثمّة قيمة أخرى للجمل الخبريّة الاسمية المشار إليها، إذ إنّها قدّمت وظيفة هي الوصف الدقيق لأحوال الراوي وصحبه، وهذه الوظيفة سبب في إظهار وظائف أخرى تمثّل ردود أفعال، وتحديدا هنا يشار إلى الوظيفة التي تظهر للبطل بمساندة الراوي لدفع الضرر اللاحق بفئة مجتمعيّة ما وإزالة الضرر عنها، وبالتالي إعادة التوازن المنشود للنصّ بعامّة وللفئة المغلوب على أمرها بخاصّة. فمما يجدر ذكره، وهو غير خافٍ "أنّ المقامات تكرّس غاية مهمة، هي الغوص في قاع المجتمع لتعرية الواقع الاجتماعي ونقد الطبقات الاجتماعية والأنماط البشريّة السالبة"[23]، وتشهد المقامة في ختامها على تحقيق التوازن، يقول الهمذاني: "لا جرم إنّا استمحنا الأوساط، ونفضنا الأكمام، ونحينا الجيوب، ونلته أنا مطرفي، وأخذت الجماعة إخذي، وقلنا له: الحق بأطفالك، فأعرض عنّا بعد شكرٍ وفّاه، ونشر ملأ به فاه"[24] .

ويستفاد من هذا الكلام إخلاص الراوي وجماعته في العطاء لا مجرّد العطاء حسب، فقد "سألوا أوساطهم أن تعطيهم ما فيها ليعطوا الرجل، والأوساط هي ما ينتطقون به على أوساطهم كعادة المسافرين، والأوساط تحمل معظم دنانيرهم، ويتركون في جيوبهم القليل من الدراهم، والمعنى أنهم أرادوا أن يعطوا الكثير ويتركوا الأماكن قليلة المال وهي الجيوب، وقد دلّ على إرادتهم كذلك نفْضهم الأكمام ليخلصوا أيديهم إلى أوساطهم فيسرعوا إلى العطاء، ومنهم من أعطى عينًا ومنهم من أعطى كساء بما فضل من ثيابه"[25].

وما دام الحديث في النسق اللغوي الذي يسرّع في تحقيق الإجابة، فإنّ عيسى بن هشام أقرّ بالبراعة اللغوية لدى أبي الفتح الإسكندريّ، التي كان لها الدّور في نهوض عيسى وأصحابه بدورهم في العطاء، "قال عيسى بن هشام: فوالله ما استأذن على حجاب سمعي كلام رائع أبرع وأرفع وأبدع مما سمعت منه"[26]، وبعد هذا الوصف لبلاغة أبي الفتح أخذت الأحداث طريقها إلى الانفراج والبذل حسب ما ذكر في الفقرة السابقة.

وهكذا أدّت اللّغة وظيفتها من خلال الجملة الخبرية، الفعليّة منها والاسميّة في كشف بؤرة الأحداث في المقامة، حيث ظهور الغنى والثراء على الراوي، وما ترتّب على ذلك من حبّه التنقّل والترحال بين المدن والأماكن نتيجة حتميّةً لغناه، وهذه البؤرة الحدثيّة هي نفسها فُسّرت على أنها تمثل الفساد المالي والأخلاقي في المجتمع آنذاك، وهو بحاجة إلى ظهور البطل الذي يلتقي بالراوي ليستميله بجمال اللغة وبراعتها في البذل والعطاء لمن هو في حاجة وفقر شديدين وهذا ما كان.

وفي قول الهمذاني في مشهد صراع الفتى والأسد: **(ملكته سورة الأسد، فخانته أرض قدمه)**، يُلمح عارضان تركيبيان، **الأوّل**: استبدال التركيب الخبري المجازي المتلفظ به (ملكته سورة الأسد) بالتركيب الحقيقي الافتراضي (صرعه الأسد أو قتله أو غلبه)، **والثاني**: تقديم الضمير المفعول به العائد إلى الفتى في الفعل (ملكته)، وكأنّ النسق الوظيفيّ هنا يريد أن يبرّر مصرع الفتى وتهوين الأمر عليه وعلى رفقته، فلو استُخدم التعبير الحقيقيّ الافتراضي لجُرّد الفتى من صفاته، ولدلّت الجملة على صراع بين طرفين، وما كان

---

[23] () النجار، محمد رجب: النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية، دار العروبة للنشر والتوزيع - الكويت، 2002م، ص: 282 - 283.
[24] () الهمذانيّ، ص: 79 - 80
[25] () السابق، والصفحة نفسها.
[26] () السابق، ص: 79.

الفتى فيه كفؤًا، ويؤكّد هذا المعنى قول الهمذاني (فخانته أرض قدمه) "فكأنّ الأرض قد عاهدته على أن تحمل له قدمه ثمّ خانته بأن أزلفته فسقط منكبًّا يلقى الأرض بيده وفمه"[27].

إذن كان للأسد شراسة وقوة فوق ما يكون في الآدميّ، وكأنّها مبرّر لمصرعه وعزاء لصَحْبه، وبالتالي كان لهذا النسق الوظيفي أثر في عارض التركيب، بأن دلّ على مصرع الفتى بقوة الأسد وفتكه لا بضعف الفتى، فالتركيب المجازي يمثّل البنية السطحية للتركيب الحقيقي المستبدل، والملحوظ أنّ التركيبين: (ملكته، وخانته) مجازيان، والتحول فيهما من البنية العميقة (التعبير الحقيقي) إلى البنية السطحية هو المؤدي للدلالات المشار إليها؛ فالفتى ليس مسؤولا عن مصرعه.

ونقف مع **المقامة الأذربيجانيّة** لنتبيّن ما فيها من عوارض للتركيب، وكيف أثر فيها النسق الوظيفي للغة. وموضوع المقامة هذه أن عيسى بن هشام لما صار إلى الغنى اتُهم بأن هذا المال نتيجة مال سلبه، أو كنز عثر عليه، فأراد الهرب خفية وعلى وجه السرعة، ومعروف أنّ التنقل والترحال والسفر من أساسات المقامات فيما يخصّ الراوي، كأنه دائم البحث عن شيء يراد.

ويفتتح الراوي المقامة بقوله: **"لما نطّقني الغنى بفاضل ذيله، اتُهمتُ بمال سلبته أو كنز أصبته"** والعارض التركيبي في هذا المقال هو بناء الفعل (اتُهمت) للمفعول أو بالمعنى البلاغي حذف الفاعل وإقامة المفعول مقامه، فما أثرُ النسق الوظيفي في هذا العارض، وهل أثّرَ في الدلالة؟

لا شك أن النسق الوظيفي والدلالة أثّرا في هذا العارض، فالوظيفيّة والوظيفيون يؤكدون على أنّ "علاقة بِنية اللغة بوظيفتها علاقة تبعية، فلا يتأتى تحديد الخصائص البنيوية (معجمًا وتركيبا وصوتًا) إلا بالرجوع إلى الخصائص الوظيفية الدلالية والتداولية، وعليه تتحدد السمات التركيبية لأي منتج لغوي (جملة أو تركيب أو نصّ) حسْب الغرض التواصلي المقصود تأديته بناء على أسبقيّة الغرض المعرفية"[28]، ويبدو أنّ التركيز لا على فاعل الاتهام، وإنما على المتَّهم عيسى بن هشام، ليتحقق له من هذا الاتهام ذريعة الهرب والسفر، والسلب نفسه لم يكن من الأهمية أيضا، بدليل تقديم المتعلق به الجار والمجرور عليه، (اتهمت بمال سلبته)، وقد توافرت أشراط السفر وهي الاتهام بالمال، وأخيرا جاء الفعل (سلبته) متأخرا عن موقعه في النظم الكلامي؛ ولذا كان لهذه الدلالة أثرها في تقديم ما حقه التأخير، وفي حذف الفاعل كذلك.

ويطابق ما ذُكر **عارضٌ تركيبيّ** آخر في السياق، فلما عزم عيسى بن هشام على السفر أكّد هذا بقوله: **"حفزني الليل، وسرت بي الخيل"**، بتأخير الفاعل في الجملتين وتقديم المفعول، فرغبة عيسى بالسفر عبر عنها بتحفيز الليل له وسريان الخيل، وفي الموضعين كانت الرغبة كبيرة لديه بالخروج والسفر، فقدم العائد إليه الياء في حفزني والياء في بي، ليكشف أنّ لرغبته دورا في ذلك أكثر من دور المحفّز، وليكشف أن إرادته للسفر أقوى من وسيلة السفر وهي الخيل؛ ويؤكّد سياق الكلام هذه الإرادة وتلك الرغبة، فقد أراد عيسى بن هشام النزول في أذربيجان ثلاثة أيام، لكنه أقام بها شهرا لطيب ما لقي.

وفي **المقامة البلخيّة** يريد عيسى بن هشام أن يذهب للتجارة إلى مدينة اسمها بلخ، وهو في بداية شبابه خاليا من هموم الحياة ومشقاتها، ويوم أن كان في سعة من المال ولا يهمه إلا طلب العلم، وكان يهتمّ بالحفظ

---

[27]() السّابق، ص: 38

[28]() المتوكل، أحمد: التركيبيات الوظيفية قضايا ومقاربات، الناشر: مكتبة دار الأمان ـ الرباط، الطبعة الأولى 1426ه ـ 2005م، ص: 30

والكتابة، ولطائف البلاغة، يقول في مطلع المقامة: **"نهضت بي إلى بلخ تجارة البزّ فوردتها وأنا بعذرة الشباب وبال الفراغ وحلية الثروة"**[29]، ويقوم هذا المفتَتَح على الجملة الخبرية وما فيها من متعلقات، ويُرى أن في الجملة **استبدالاً** إضافة إلى التقديم والتأخير، وهما من عوارض التركيب لهما في الدلالة أثر بيّن، أمّا الاستبدال فيظهر في إسناد الفعل (نهض) إلى التجارة بدلا من أن ينسب الفعل إلى نفسه في قصد التجارة والسفر.

وأثر هذا الإسناد نقل التركيب إلى المجاز بدل الحقيقة، فلو قال (توجهت إلى بلخ) لكان تعبيرا حقيقيا مفيدا لمعناه، وبهذا النقل والاستبدال تحقّق في النسق الوظيفيّ للغة أمر هام هو التفنن اللغوي وإظهار المقدرة البلاغية، وهذان هدفان في المقامة ساميان، فكان من التوافق بين العارض التركيبي والمضمون ما هو بيّن، ويجيء التساؤل هنا: لمَ قُدّم غرض البلاغة والتفنن اللغوي على إسناد فعل الذهاب للتجارة للفاعل الحقيقي؟ والجواب يكمن في كون الحديث عن بلاغته هنا أمرا جوهريا، يقف خلفها أيّ هدف آخر.

ونجد في السياق نفسه **عوارض تركيبية** أخرى، فجاء في وصف الحالة التي كان عليها عيسى بن هشام في الاستعداد للسفر إلى بلخ، جاء قوله: **"فوردتها وأنا بعذرة الشباب، وبال الفراغ وحلية الثروة"**، وفي هذا الكلام أسلوب خبري (فوردتها)، وهو أسلوب سردي اعتيادي يدفع الأحداث إلى الأمام ويقدّمها، وهي من الجملة الممتدة لا البسيطة، لأنّها تتضمن جملة أخرى هي جملة الحال (وأنا بعذرة الشباب)، والعدول من الحال المفرد إلى الحال الجملة هو استبدال، فمن بساطة التعبير أن يقال: (فوردتها شابًّا)، لكن المختار هو التركيب البديل، وهو يعكس دلالة قيّمة موافقة وظيفيًّا لمراد عيسى بن هشام ولما تتطلبه الصياغة الفنية للمقامة الهمذانية.

فالمقامة كما يبدو تضطلع بدور الصانع للغة والمبدع لها، والبارع في صياغة الجُمل وتشكيل ألوان البديع وصنوف البلاغة، وهذا ما تحقق في التركيب المستبدَل، فهو من المؤكد أكثر إبداعًا من التركيب المفترض، إذ تحمل الجملة الحالية حيوية أكثر وتفاعلا أوسع من الحال المفرد، ثمّ هي تمثّل طاقة ممتدة توافق طاقة عيسى بن هشام في العزم على السفر والخروج.

يُضاف إلى ذلك ما في العبارة من المجاز والتصوير (بعذرة الشباب)، ومتى استُخدم المجاز حريٌّ بالباحث الإقرار بوجود المعنى الباطن أو الدلالة الخفيّة، قال الجرجانيّ: "الكلام على ضربين: ضربٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرْبٌ آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثمَّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"[30].

ومن **عوارض التركيب** في مطلع هذه المقامة الاستبدال الظاهر في أسلوب القصر[31] **(لا يهمني إلا مهرة فكرٍ أستقيدها، أو شرود من الكلم أصيدها)**، فالمعنى البسيط تهمني الفكرة، أو أهتم بالفكرة، أو همّي الفكرة..، لكنّ الملفوظ هو الذي جاء بأسلوب القصر، ولا يخفى ما لأسلوب القصر من دلالة على تخصيص

---

[29] **() الهمذاني، ص: 17**

[30] **() الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، ص: 262.**

[31] **() القصر لغة: الحبس، واصطلاحًا: تخصيص شيء بشيء بطريق معهود، وحاصل معناه راجع إلى تخصيص الموصوف بوصفه دون ثانٍ. انظر: التفتازاني، سعد الدين: المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة 2013م، ص: 381.**

شيء بشي، وهنا يؤكد المقام على أنّ عيسى بن هشام غير ناظر إلى ما سوى بلاغة الكلمة، ونفاسة التعبير والكتابة الحسنة والحفظ السليم، ويقوّي هذا التصور ويعضده نقل الكلام بصورة المجاز والتشبيه الفريد.

جاء في شرح المقامة ما نصّه: "المهرة: الأنثى من ولد الفرس. وأستقيدها: أطلب أن تنقاد لقيادتي، ويقال: فلان يقود فرسًا إذا كان يملكها، والفكرة بنت العلم، وعليها لا يألف الألسنة منها إلا في مقاول الخاصة من الناس لنفاسته وعلوّ معناه، فلا تحفظه أذهان العامة، فكأنه الحيوان الشرود النفور. وصيدها: تناولها بالحفظ أو الكتابة. والمراد من الكلم الجمل المفيدة لا الكلمات المفردة"[32] . ونقل المعنى من التعبير الحقيقي إلى التعبير المجازي لَيُبيّن أهمية الفكرة البِكر لدى ابن هشام، والكلمة الغريبة والجمل المفيدة، والتعبير المجازي بعامّة يمثّل التحولات التي تتمّ بدءًا من الفكرة المراد التعبير عنها في البنية العميقة وانتهاء بالصورة المختارة في البنية السطحيّة، وهي بتعبير الباحث أحسنُ صورة متاحة أمام المبدع لتتكفّل بحمل الدلالة التي يريدها من جهة، ووفق ما يتطلبه السياق الوظيفي للخطاب من جهة أخرى..

ومِمَّا يُلْحَظ من **عوارض التركيب** في المقامة البلخيّة التقديم والتأخير في قوله: **"أظعنًا تريد"؟**. وقبل الشروع في التحليل يجدر التذكير بأنّ باب التقديم والتأخير وسيلة المبدع في التعبير عمّا يريد، ووفقا للأهمية الدلالية في نفسه يُحدث في التعبير ما يراه موافقا للغرض، قال سيبويه عنه: "كأنّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهمْ ببيانه أعنى، وإنْ كانا جميعًا يهمّانهم ويعنيانهم"[33].

ويمكن أنْ يُقال أيضًا إنّ باب التقديم والتأخير آلة نصية تخلق في النص انسجاما أكثر وترابطًا أقوى، وإن أُحسِن توظيفه كان موافقًا لمقاصد الكلام ودالا عليها، ومن المعروف أنّ لدراسة اللغة جانبين؛ الأوّل: قواعدها القائمة على التصنيف والتبويب، والثاني: استعمالها القائم على مرتكزات لا تتفق دائمًا مع القواعد، فللمتكلّم من الأغراض ما لا يتفق بالضرورة مع القاعدة، وتلك الأغراض هي التي تدعو للخروج من الحقيقة إلى المجاز، ومن المطابقة إلى الترخّص في معايير الإجراء بوسائل مختلفة منها التقديم والتأخير"[34].

وبالعودة إلى الشاهد يُلحظ تقديم المفعول به على الفعل والفاعل في قول عيسى بن هشام على لسان الرجل الذي دخل عليه: **"أظعنا تريد"؟** والظعن هو السفر، أيْ: أتريدُ سفرًا؟ وفي تقديم المفعول به ملمحان دلاليان، **الأول**: التأكيد على أهمية السفر الذي يعد بؤرة مركزية في المقامات بعامة، وفي البلخية هنا بخاصة، فمن يتتبع مقامات الهمذاني يجد بكثرة تنقل عيسى بن هشام من مكان إلى آخر، وما بين المكانين يصنع الأحداث التي تقوم عليها المقامة، فللأهمية إذًا قُدّم المفعول به الظعن على الفعل.

والملمح الدلالي الثاني يتجلى بتأخير الفعل المضارع (تريد)، وهو من صيغة (يفعل)، ووزنه الصوتي (يفيل) ووجود المد الياء يدلّ على طول النَّفس ومدّه، وهو ما يتلاءم ومعنى السفر الذي يحتاج إلى ذلك، ولم كان موقع الفعل في نهاية التركيب كأنه أُطلق المدّ موافقة لانطلاق عيسى بن هشام.

---

[32] () الهمذاني، ص: 17.

[33] () سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان: الكتاب، الجزء الأوّل: تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجيّ ـ القاهرة، الطبعة الثالثة 1408ه - 1988م، ص: 34.

[34] () دي بو جراند: النّص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمّام حسّان، عالم الكتب ـ القاهرة، الطّبعة الأولى 1418ه - 1998م، ص: 4.

ويبدو ثمة **عارض** آخر هو **الاستبدال**، استبدال لفظ السفر بالظعن، ومعروف أن الظعن يستخدم للسفر إن كان فيه امرأة، ومتى كان مع الرجل زوجته في السفر كان أكثر استقرارا واطمئنانا، فاستخدم الظعن لأنه أكثر ملاءمة لمعنى الاستقرار والاطمئنان.

ويلجأ ابن هشام في موطن آخر لتقنية **الحذف بوصف عارضا** تركيبيا في قوله:

صباح الله لا صبح انطلاق وطير الوصل لا طير الفراق

"والعرب يتفاءلون بإضافة الصباح إلى الله، لأن الله فيض الخيرات، بل هو الخير المطلق، والانطلاق: الذهاب وهو بداية البعد وإليه ينتهي، فالصبح المضاف إليه يتشاءم بشؤمه، والطير: مما يتفاءل به ويتشاءم على عادة العرب في الجاهلية، وطير الوصل: ما تفاءلت منه بقرب الحبيب، وطير الفراق: ما تشاءمت منه ببعده، والبيت دعاء باليمن وإبعاد مناشئ الشؤم، وإلا فلا طير عند القائل، غير أنه ذهب باللفظ مذهب التفاؤل فقال: صباح الله"[35]، فلا حديث عن الصباح، وليس الصباح هنا مسندا إليه أو محورا للكلام، فلا داعي لذكره، وحذفه أنفع، وحقيقٌ بالراوي أنْ يتوجّه بالخطاب إلى بوابة التفاؤل، فجاء التركيب محذوف المبتدأ: (صباح الله).

هكذا تبيّن أنّ للجملة الخبرية بشقيها: الفعلية والاسمية دلالاتٍ مختلفةً في النص الأدبيّ ومنه المقامة، كما تبيّن أنّ لكلّ منهما خصائص تميزها عن الأخرى، وفي كلّ منهما تحدث عوارض في التركيب **كالتقديم والتأخير والحذف والاستبدال**، وتبيَّنَ أنّ هذه العوارض تأتي استجابةً لمتطلبات النسق الوظيفي في الكلام، فيتمّ التلاعب بالتركيب عدولا وانزياحًا وفق ما يريد المتكلّم، ويكون دور المتلقي النظر في هذه العوارض وربطها بالسياق وبغرض المقامة العام، وبغرض التركيب بوجه خاصّ، والخروج بتصوّر خاص عن أثر النسق الوظيفي في العارض التركيبي.

الخاتمة:

إيمانًا من الباحثة بأنَّ مقامات الهمذانيّ في مجملها، ذاتُ غايةٍ تعليميّة في مجال اللغة؛ فقد خَلُصَ إلى النتائج الآتية:

- عُدّ الأسلوب الخبريّ ـ فيما وقفت عليه الباحثة من أمثلة ـ ذا كثافةٍ دِلاليّة في النَّسق الوظيفيّ الذي استخدم فيه ذلك الأسلوب.
- عوارض التركيب في الأسلوب الخبري في الأمثلة التطبيقيّة حَمَلت الدّلالات والمقاصد المبتغاة لدى كلٍّ من عيسى بن هشام وأبي الفتح الإسكندريّ.
- عوارض التَّركيب جاءت استجابة لمتطلبات السياق الوظيفي في المقامات وفي الأمثلة المدروسة بخاصّة.

[35] **() الهمذانيّ، ص: 19.**

- تبيّن أن النسق الوظيفي يمثل إطارا حاكما في تفسير التحولات التركيبيـة في مقامـات الهمـذاني، إذ يُقدّم الوظيفة والدلالة على البنية المجردة، ويبرر العدول عن الصيغ النحوية الافتراضية إلى صـيغ بديلة أكثر ملاءمة للمقام.

المراجع:

- **القرآن الكريم**
- **التفتازاني، سـعد الـدين: المطـوّل شـرح تلخيص مفتـاح العلـوم، تحقيـق: عبدالحميـد هنـداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة 2013م.**
- **الجرجاني، عبـدالقاهر: دلائـل الإعجـاز في علم المعـاني، تــحقيق: عبدالحميـد هنـداوي، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى.**
- **ابن الحاجب، جمال الدّين عثمان بن عمر بن أبي بكر المالكيّ: الكافية في علم النّحو، تحقيق: صالح عبدالعظيم الشّاعر، الناشر: مكتبة الآداب ـ القاهرة، الجزء الثاني، الطّبعة الأولى 2010م.**
- **حسّان، تمام: اللغة العربيّة معناها ومبناها. دار الثقافة ـ الدار البيضاء المغرب، طبعة 1994م.**
- **خطّابي، محمد: لسانيّات النّص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربيّ.**

- **خليل، لؤي علي، وإسلام علي أبو زيد: مقامات الهمذانيّ واختبار الوظائف السرديّة، جامعة قطر، المجلّد: 16، العدد: 2، جوان 2021م، ص ص: 67 - 104.**
- **دي بوجرانـد، روبـرت: النص والخطـاب والإجـراء، ترجمـة: تمـام حسّـان، عـالم الكتب، القـاهرة، الطبعة الأولى 1418ه – 1998م.**
- **السـكاكيّ: مفتـاح العلـوم، ضـبطه وكتب هوامشـه وعلّـق عليـه: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّـة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى 1403ه - 1983م.**
- **سـيبويه، أبـو بشـر عمـرو بن عثمـان: الكتـاب، الجـزء الأوّل: تحقيـق وشـرح: عبدالسـلام محمـد هارون، مكتبة الخانجيّ ـ القاهرة، الطبعة الثالثة 1408ه - 1988م.**
- **شاكي، كمال: المقامة الأسدية لبـديع الزمـان الهمـذاني، دراسـة في البنيـة السـردية، مجلـة الآداب واللغويات، العدد 10، ديسمبر 2019.**
- **الشكعة، مصطفى: بديع الزمان الهمذاني، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الرابعة 2001م.**
- **عتيق، عبدالعزيز: علم المعاني، دار النهضة العربيّة، بـيروت ـ لبنـان، الطبعـة الأولى 1430هـ - 2009م.**
- **المتوكل، أحمد: التركيبيات الوظيفية قضايا ومقاربات، الناشر: مكتبة دار الأمان ـ الربـاط، الطبعـة الأولى 1426ه - 2005م.**
- **المقداد، محمود: صفة الأسد لأبي زبيد الطّائي، مجلـة جامعـة دمشـق، المجلّـد 29، العـدد: 1 - 2، 2013م.**
- **النجار، محمد رجب: النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية، دار العروبة للنشـر والتوزيـع - الكويت، 2002م.**
- **نحلة، محمود: علم اللغة النظاميّ، مدخل إلى النظرية اللغويّة عنـد هاليـداي، ملتقى الفكـر، الطبعـة الثانية 1422ه - 2001م.**
- **الهمذاني، أبو الفضل أحمد بن الحسين: مقامات بديع الزمان الهمذانيّ، قدّم لها وشرح غوامضـها: الإمام العلامـة الشـيخ محمـد عبـده، منشـورات محمـد علي بيضـون، دار الكتب العلميّـة، بـيروت - لبنان، الطّبعة الثّالثة 1426ه - 2005م.**

<u>المعاجم:</u>

- **المعجم الوسيط (مَجْمَع اللغة العربية بالقاهرة)، مكتبة الشروق الدَّوْليّة، الطبعة الرابعة 1325ه ـ 2004م.**
- **ابن منظور المصري: لسان العرب، دار صادر ـ بيروت، الطبعة الثالثة 1414ه.**